قصيدة الهايكو عند الشاعر الأمريكي إزرا باوند

سأتناول في هذه المقالة قصيدة هايكو للشاعر الأمريكي الذي قضى معظم حياته مغتربا إزرا أو عزرا باوند Ezra Pound (1885-1972)، وهو من شعراء الحداثة الغربية ولعب دورا كبيرا في نقل الشعر الإنجليزي بعيدا عن الإطناب والبلاغة الخاوية التي كانت منتشرة في العصر الفيكتوري. وهذه القصيدة من أشهر قصائد الهايكو في اللغة الإنجليزية، نظرا لارتباطها ببواكير قصائد الهايكو الإنجليزية وارتباطها بالمدرسة التصورية في الشعر الإنجليزي، وهي مدرسة تقوم على اتجاه شبه موضوعي في كتابة الشعر يتخلص من كل الزوائد والانفعالات المباشرة ويقدم لنا في القصيدة صورة مرسومة بالكلمات تجمع ما بين دقة الصورة والهواجس الإنسانية. وهذه القصيدة بعنوان "في محطة المترو":

In a Station of the Metro

THE apparition of these faces in the crowd;

Petals on a wet, black bough.

طيفُ هذه الوجوهِ في الزحام

بَتَلاتُ زهورٍ على غصن أسود مُبْتَلٍّ.

تتكون هذه القصيدة من سطرين (ففيها تمرد هايكو على بحور الشعر الإنجليزي، وإن كان بعض النقاد يقولون إن احتواء السطر الأول على ثماني كلمات والثاني على ست كلمات يذكّرنا بشكل السونيت الإيطالية التي تتكون من مقطوعتين: ثمانية وسداسية)، وكتبها باوند في البداية في ثلاثين سطرا، وظل يختصرها ويكثّفها لأكثر من عام كامل إلى أن صارت سطرين. وكان باوند يحاول إثراء الشعر الإنجليزي من خلال تجريبه في شكل الهايكو، ونجده هنا لا يلتزم بالتقسيم على ثلاثة، أسطر ولكنه يحتفظ بالفاصلة

المنقوطة التي تستخدم في اليابانية (أو تستخدم بدلا منها شَرطة أو أية وسيلة أخرى تقوم بالفصل بين المشهدين).

والمشهدان هنا عبارة عن مشهد حاضر ومشهد غائب أو متخيَّل يتحقق في مخيِّلة الشاعر بناء على تأمله للمشهد الحاضر. وكتب باوند القصيدة في باريس في عام 1912 تقريبا ونشرها في عام 1913. والمشهد الحاضر رآه الشاعر في المترو تحت الأرض بباريس. ويستخدم كلمة الطيف التي تدل على الحضور والغياب معا، على التجسد والوهم، على الإيمان بالغيبيات وفي نفس الوقت التأكيد على عدم وجود مادي، على الحضور البشري/الحياة وعلى زوالها في نفس الوقت. ويستخدم "هذه الوجوه" بوصفها مجازا مرسلا أو كناية عن البشر ككل.

هذا المشهد البشري يحيله إلى مشهد آخر من الطبيعة بالمعنى الضيق (فالبشر جزء من الطبيعة أيضا)، وهذا المشهد الآخر غريب أو استثنائي: فمتى تكون الأغصان سوداء؟ لا بد أن ذلك كناية عن الأغصان في الظلام بالليل.

والبتلات مجاز مرسل يدل على الزهور ذاتها. وبلل الغصن يدل على سقوط الأمطار قبل قليل، والأمطار تجعل الزهور المتفتحة تنكمش وتميل للالتصاق بالأغصان. وكلمة bough في الإنجليزية متماثلة صوتيا مع كلمة bow التي تعني يميل أو ينحني وتذكّرنا بتعبير take a bow الذي يدل على انحناء الشخص للجمهور الذين يصفقون أو يهللون له.

يقول باوند ذاته عن القصيدة: "في قصيدة من هذا النوع، يحاول المرء أن يسجل بدقة اللحظة التي يقوم فيها شيء خارجي وله وجود موضوعي بتحويل نفسه، أو يصير شيئا داخليا وذاتيا".

وهذا هو جوهر الهايكو أو روحها: فهناك مشهد حاضر له وجوده الخاص يتحول في عين من يقف أمامه ويتأمله إلى مشهد ذاتي له معنى آخر. والقصيدة تجمع بين المشهدين، وفي الغالب تذكر المشهد الأول كما هو، ثم تذكر دلالته الخاصة في عين المتأمل أو الذات التي ترصده.

وأعود إلى أسلوب ترجمتي لقصيدة باوند. القصيدة في الإنجليزية عبارة اثنين من أشباه الجمل، وكل شبه جملة في سطر، وأؤكد هنا على الجانب التجريبي للقصيدة في ذلك الزمن الذي كُتبَت فيه، فالشعراء الإنجليز اللاحقون لجأوا في الغالب استعمال جملة كاملة في قصيدة الهايكو. ومن الواضح أن المعنى لا يستقيم إلا من خلال القيام بعملية تأويل لتركيب القصيدة وإدراج الشيء الناقص الذي يجعلها كاملة تركيبيا ونحويا، وهذا الشيء يتمثل في إدراج فعل بين السطرين بدلا من الفاصلة المنطوقة ليربط بين السطرين، ويقوم القارئ بهذا الإكمال تلقائيا في ذهنه.

فإذا كان القارئ ينظر للقصيدة ككل على أنها استعارة سيضع الفعل are أما إذا كان ينظر إليها على أنها تشبيه فسيضع فعلا يدل على ذلك مثل look like أو are like وهما بمعنى تشبه. ومن الملاحظ هنا أن أي جملة في الإنجليزية لابد أن يكون بها فعل، أما عندنا في العربية فتوجد الجملة الاسمية وتوجد الجملة الفعلية، وبالتالي لسنا

مضطرين عند الترجمة أن نضع فعلا، لأن بنية الجملة الاسمية تفي بالغرض، ولذلك حذفتُ الفاصلة المنقوطة وترجمت القصيدة على أساس أنها جملة اسمية واحدة ومكتملة.

وهذه من الملاحظات المتكررة على الكثير من الهكائد التي تُكتب في العربية: أي عدم التزام الكثير من هذه الهكائد بصيغة عربية نحوية وتركيبية سلسة، ولا تلتزم ببنية الجملة العربية أو طريقة اللغة العربية في التعبير وبناء الجملة.

والملاحظ على هذه القصيدة في الإنجليزية وترجمتها العربية على حد السواء أنها تستخدم المجاز بتصرف: أي المجاز الذي يكون له دور أساسي في توصيل المعنى وتوصيل رؤية الشاعر للتجربة التي تتناولها القصيدة ذاتها، وأن هذا المجاز ليس عنصرا من الشكل الخارجي للغة القصيدة، وإنما هو عنصر جوهري في بناء المشهد ذاته: فلا يمكننا هنا أن نحذف "طيف" ولا "أسود" ولا "مبتل"، كما أن هذا المجاز لم يحدث له أي ضياع عند الترجمة وإنما ظل

كما هو في العربية وظلَّ قابلا لأن يفهمه القارئ العربي بسهولة.

كما أن القصيدة ذاتها تقوم على ما أسميتُه من قبل الاستعارة التركيبية: أي أن تكون العلاقة فيما بين السطرين أو الأسطر علاقة استعارية: فالسطر الأول طرف من أطراف هذه الاستعارة والسطر الثاني طرفها الآخر: الطيفُ = بتلاتٌ.

الهكيدة حركة من لحظة حاضرة في وعي الشاعر – سواء أكان هذا الحضور منعكسا على المكان الموجود فيه من حوله أم لا – إلى لحظة أخرى في مكان آخر أو في زمان آخر (للوراء نحو الماضي أو للأمام نحو المستقبل) أو في درجة أخرى من درجات الوعي.